ألا تدري مدى أهميتك يا رجل؟

كان لصديقتيه المبثوثتين: إحداهما فى القصر، والأخرى فى المؤسسة، فعلهما أن يقترب من الأحداث كأنه يصنعها، فقد تعمد أن يمنح حشمت بركات شعورًا بالاستقواء فى مواجهته، ثم منحه العفوية فى إرسال كل جديد لديه بعد أن توقف عن معاملته باستعلاء بعد قفزته الشهيرة فى مقابلة عبد الناصر والتمتع بإعجابه، ثم أذهلته كل تحركاته المعلنة خلف مواكب الزعيم ومداخلاته المنقولة على الهواء فى مؤتمراته الشعبية، وصار حشمت هو الصديق الظاهر والعدو الخفى، وصار لا يعلق على ما يراه من تطور يزداد علوًّا فى شخصية السيد السياسية الجديدة .

* * *

وبعد أسابيع جاء اليوم الذى أنبأته فيه فوزية أنها فى طريقها لاستعارة مجوهرات أميرة الجديدة لتحضر بها سيدتها حفل جديد..

انتظرها قرب بوابة قصر الأميرة ومعه شاب لا يحمل سحنة المصريين وسرعان ما راحا يتفحصان المجوهرات بإمعان داخل السيارة، ثم انتهيا إلى قول قاله هذا الشاب وهو:

ـ «أعطنى ثلاثة أيام..»

واصطحباها إلى محل مجوهرات فى الزمالك.. وصعدا سويًّا إلى دوره العلوى، وبقيت لساعتين بدوره الأرضى قبل أن ينطلقا بها إلى مقر عملها بالقصر.. ثم تكرر نفس الأمر معكوسًا عندما أخبرته أنها فى طريقها لتسليم «الأمانة» إلى صاحبتها. إلا أنها لم تجلس طويلًا هذه المرة قبل أن ينطلق بها إلى قصر الأميرة.

وعندما عادوا كان السيد النحال قد حقق أول قفزة فى عالم المجوهرات بامتلاك غنيمة مذهلة هى تلك التى احتفظ بها ودس بديلًا عنها مجوهرات زائفة دقيقة ورقيقة خالية من أى سوء بعد أن تم تقليدها بمهارة.

وتملكه سعار اقتناء المجوهرات الأصلية التى اجتمع لديه منها كمّ يشير إلى عدد مرات الاستعارة التى لا تكف سيدة القصر عن تحقيقها فى كل مناسبة مع أميرة جديدة فى كل مرة..

وصارت خطته الجديدة هى اجتياز الحدود المصرية وتحديدًا إلى اليونان لبيع هذه الثروة.. ثم صار يحلم بجلب شحنة حشيش وأفيون يدخل بها عالم الكبار الذين يسمع عنهم ولم يرهم فى حياته.

ووثق أنه لن يقوى على تحقيق هذه القفزة إلا بمساندة كاملة من صديقه حشمت الذى يخطط لاستخدام نفوذه الجديد تخطيطًا ساذجًا، وبدا له أن هذا الرجل لا يعرف بدقة أين يتجه كما لوكان ربانًا فقد بوصلته، وفى لحظة ما أيقن السيد النحال أن هذا الموتور مشغول بتأمل الحلم الذى سيتحقق لعائلته إذا رحل الزعيم وغادر الكرسى الفرعونى المقدس.. مشغول بتأمل الدنيا القادمة عن نهب دنياه القائمة .

* * *

وها هو حشمت يجلس معه أمام التلفاز ليسمع إجابات الزعيم على أسئلة الصحافة العالمية حول موافقته على مبادرة «روجرز» الأمريكية.. وكان من المعروف أن النائب أنور السادات سارع برفض هذه المبادرة قبل أن يطلع على رأى عبد الناصر فيها، فقال السيد:

ـ «السيد النائب كان يجب أن يتمهل فى إبداء رأيه، ولا يرفض شيئًا قبل أن يتأكد أن الرئيس سيرفضه.»

ـ «النائب يا محترم يعرف ماذا يفعل.. النائب لا شأن له بالمبادرة.. النائب يقدم نفسه للشعب ولإسرائيل فى وقت واحد، وهو أنه سيكون أشرس عداء لليهود من عبد الناصر»

هكذا رد عليه حشمت بغيظ شديد، فألقى السيد إليه بما سمعه فى أروقة الاتحاد الاشتراكى:

ـ «سمعت أن عبد الناصر يتبنى موقفًا تكتيكيًّا بالموافقة على وقف إطلاق النار حتى

يتمكن من بناء حائط صواريخ على القناة وفى العمق خلال فترة المبادرة»

فقال حشمت بركات بلهجة مملوءة بالسخرية :

ـ «أى صواريخ؟ وأى حوائط؟ كله تضييع وقت»

ثم أشار إلى عبد الناصر وهو ينهض من خلف المنصة منصرفًا بعد انتهاء المؤتمر:

ـ «انظر.. لقد بدأ ظهره فى الانحناء.. شاخ وعمره زاد عشرين سنة هل هذا منظر رجل سيحارب؟»

ـ «لم يكن هذا منظره بعد أن عاد من «تسخالطوبو».. كانت صحته أفضل.. أخشى أن تكون هناك مؤامرة على صحته..»

تأمله حشمت بعمق وشك:

ـ «ماذا تقصد بهذا الكلام؟»

فقال السيد ببراءة مقصودة:

ـ «المؤامرة على الصحة أسهل من المؤامرة على الحياة، يكفى طبيب واحد يعطيه الدواء الخطأ»

ـ «تقصد أحد الأطباء الجواسيس.. ممكن.. فعالم المخابرات ملىء بهم»

وتسلل السيد النحال مسرعًا إلى بغيته:

ـ «بمناسبة الأطباء، سأطلعك على سرّ: أنا قلق على نفسى كرجل.. فخميسة لم تنجب منى طوال خمس سنوات، وفوزية لم تبشر بإنجاب.. أنفقت نصف أموالى سرًّا على الفحوصات والعلاج دون جدوى، يقال إن العلاج فى الخارج أكثر تقدمًا وفاعلية.. أريدك أن تهيئ لى سفرًا إلى اليونان ولكن بالباخرة وليس بالطائرة، فأنا أخاف منها..»

ضحك حشمت بركات حتى هاجت نوبات السعال عنده:

ـ «أول مرة أراك تخاف من شىء ما.. الطائرة، فكيف يحدث هذا معك وأنت لا تخاف الله»

ظل السيد النحال متمسكًا بحزمه وهيئته الجادة:

ـ «ويمكنك مرافقتى فى هذه الرحلة على حسابى كاملًا»

تأمله حشمت وهو مازال يرسل ضحكاته المتقطعة:

ـ «وما فائدتى معك؟.. ألكى أمسك برجليك عند الطبيب وأنت تكشف»

ظل أيضًا مرتديًا ثوب الأسى والحزن:

ـ «فائدتك؟.. ألا تدرى مدى أهميتك يا رجل؟.. ستُفتح لك صالات كبار الزوار فى الموانئ والمطارات.. ولن تدخل فى متاعب الجوازات والجمارك وتفتيش الحقائب و..»

توقف حشمت عن مواصلة الضحك وتأمله من جديد:

ـ «كل هذه المزايا يا ابن النحال لا يهمك فيها سوى ميزة عدم تفتيش الحقائب.. صارحنى بالحقيقة.. بماذا تنوى أن تعود من الخارج أيتها النحلة التى لا تهمد؟»

أثلج صدره أن موتوره الغبى فهم أنه سيعود محملًا، ولن يخرج من هنا كذلك:

ـ «نحن ونصيبنا.. كل ما يمكننى العودة به لك نصفه.. ربما نأتى بمجوهرات.. من يعلم؟»

ـ «موافق.. جهز نفسك.. أما أنا فجاهز من الآن..»

* * *

وأعد حقائبه ذات الجيوب السحرية والقيعان المزدوجة ودفن بها ثروته استعدادًا للسفر.. وبينما هو يفرك كفيه فرحًا همست له فوزية بصوت لا تغمره الفرحة: «أنا حامل»

قفز من جوارها وراح يتطلع إلى وجهها الحزين الملىء بالخزى والانكسار، واهتم بشىء واحد قاله لها محذرًا بإصرار:

ـ «إياك.. إياك أن تذكرى ذلك لأحد.. خاصة حشمت بركات.. هو يعلم أننى عقيم.. سيقتلك حتى يوارى جريمته.. انتظرينى حتى أعود من السفر لنحل هذه المشكلة معًا.. سأحصل لك على إجازة طوال مدة سفرى..»

ـ «لا علم لى أنك عقيم.. أنت تقول ذلك لسبب فى نفسك»

ـ «ليس هذا موضوعنا الآن.. سنتفاهم بعد عودتى.. إياك أن تخبرى حشمت»

وعندما قالت له بصوت مخنوق: «سأجهض نفسى.. رغم ثقتى أنه ابنك»

قال لها بلامبالاة: «لا شأن لى بك. إنه خيارك.. قومى به بعيدًا عنى..»